الأدب العربي ليس مقروءا

بقلم الدكتور جلال الخياط

هل كنا نقرأ أنفسنا في قصائد الاقدمين ، ام كنا نقرأ ما قاله اولئك الشعراء في قصائدهم ؟ هل كنا نخضع الظواهر كلها ونفسرها في صالحنا طبقا لما تقتضيه النفعية التي سادت بعض آثارنا الفنية ردحا من الزمن ؟ وقد مرت الدهور ولا من يكلف نفسه مشقة السؤال او اعادة النظر او التنبيه الى امور يجب ان لا نغفل عنها !

ما الذي بقي لنا من تراثنا الشعري ؟ لقد مزقنا شعراءنا شر ممزق ونهبنا قصائدهم وجزأناها وقطعناها اوصالا واشلاء واخضعناها لمنافعنا الخاصة البعيدة عن روح الفن ، وشنقنا هذه الاجزاء حكما مبعثرة في حيطان مقهى ودار ، وزرعناها شواهد نحوية موزعة في هذا الكتاب او ذاك ، وامثلة بلاغية او عروضية يتدارسها الطلبة ، الم يردد فريق من الناس هذه الابيات في كل مناسبة لا لانهم اعجبوا بها وعاشوا تجربتها وانما ليظهروا براعتهم اللغوية واجادتهم في الالقاء او انهم كانوا يحتاجون اليها لتعود عليهم بالفائدة مؤيدة اراءهم واعمالهم ؟ الم نزين جدراننا بابيات مكتوبة بماء الذهب ؟ واحببنا النصائح فاستللنا من الشعر الافا منها! اوما زكينا في كثير من احيان اقوالنا الباطلة بابيات شعرية ؟ فان كانت القصيدة موزعة ومقطعة ومبعثرة وقد اخذنا منها ما يفيدنا نحويا او بلاغيا او عروضيا او حكما او اخلاقا او القاء مجيدا ، فاين هو الشاعر ؟! واين قصيدته ؟! لقد قتلنا الشاعر وقصبنا قصيدته . ان البيت الذي نقرأه بعيدا عن القصيدة هو جزء مقتطع منها وشلو جردناه من اصله وفهمناه كما شئنا لا كما اراد لنا الشاعر ان نفهم .

ان اتهامنا القصيدة العربية بافتقادها وحدة الموضوع امر باطل ، وانني اتهم هنا القارىء بأن عقله لا يمكن ان تتم فيه وحدة ما ، فهو لا يطيق ان يرى القصيدة عالما قائما بذاته وليس في مقدوره ان يستوعب رؤية الشاعر كاملة على الاطلاق ، فوحدة الموضوع موجودة في القصيدة العربية ومفقودة في عقول بعض من قرأوا تلك القصيدة، وقد يكمن في هذا اننا لم نكتب الملاحم والمسرحيات والقصص ، قالوا : اغزل بيت ولم يقولوا اغزل قصيدة ، ولا نستطيع ان نعزو الامر الى القافية فقط ، انها طريقتنا في الفهم جعلتنا بمنأى عن شعرائنا الذين لم نتعرف عليهم بعد ، وهي التي ادت ببعض الكتاب الاجانب الى الاعتقاد بأن القصيدة العربية مفككة الاجزاء وليست عملا فنيا كاملا بذاته : « في اللغة العربية الوحدة ليست للقصيدة ككل ، ولكن للبيت . كل بيت قائم بذاته ، القافية واحدة في الابيات جميعا ، هذا صحيح ولكن تبقى القصيدة اجزاء متفرقة كحبات الخرز ـ ينتظمها سلك واحد ـ يمكن ان نرفع ايا منها ونضعه في مكان الاخر » (١) . وقد وهم ابن رشيق حين قرر ان البيت الواحد يجب ان يكون مستقلا عن الابيات الاخرى : « انا استحسن ان يكون كل بيت قائما بنفسه لا يحتاج الى ما قبله ولا الى ما بعده » (٢) . وقد حكم الدكتور محمد مندور بقسوة على الادب العربي عامة بأنه : «ادب جزئيات وحدتها البيت لا الفكرة ولا الاسطورة ولا الموقعة التاريخية » (٣) .

لقد هجم النحاة واللغويون والبلاغيون (٤) واهل المنطق والاخلاقيون ومن اولعوا بالنصائح واصحاب المقاهي العتيقة على القصائد فتناهبوها ، وكانوا ازاءها من الصيادين القانصين ، فضاع الشعر وتبدد ابداعه في هذا الخضم الهائل ، وقد عرف عن بعض الشعراء القدامى انهم لم يرتضوا ان يقتطعوا او يسقطوا اي بيت من قصائدهم ، وقيل عن ابي تمام انه : « كان يأتي بالقصيدة البديعة وفيها البيت الرذل فيتمسك به ولا يرى اسقاطه » (٥) .

ولنأت الى قصيدة مشهورة لشاعر مشهور هو ابو الطيب المتنبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس فنتخذ منها مثالا بسيطا ، ونطرح على انفسنا هذا السؤال : هل استطعنا ان نفهم شعره كما يجب ، وهل ادركنا رؤياه بوضوح ام اننا فهمنا انفسنا فيه وادعينا انه من الحكماء وهو من الحكمة براء :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ... ومن بجسمي وحالي عنده سقم
ما لي اكتم حبا قد برى جسدي ... وتدعي حب سيف الدولة الامم
ان كان يجمعنا حب لغرته ... فليت انا بقدر الحب نقتسم
قد زرته وسيوف الهند مغمدة ... وقد نظرت اليه والسيوف دم
فكان احسن خلق الله كلهم ... وكان احسن ما في الاحسن الشيم
فوت العدو الذي يممته ظفر ... في طيه اسف في طيه نعم
قد نابعنك شديد الخوف واصطنعت ... لك المهابة ما لا تصنع البهم
الزمت نفسك شيئا ليس يلزمها ... ان لا يواريهم ارض ولا علم
اكلما رمت جيشا فانثنى هربا ... تصرفت بك في اثاره الهمم
عليك هزمهم في كل معترك ... وما عليك بهم عار اذا انهزموا
اما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر ... تصافحت فيه بيض الهند واللمم

لقد تحدث الناس عن هذه الابيات واسهب النحاة في شرح « قلباه » بكسر الهاء وضمها وهو غير جائز عند الكوفيين واعرب المدرسون هذه الابيات وشرحها الاساتذة في درس النصوص وحفظها الطلبة ورددوها وامتحنوا

بها ، ولكن لم يقل أحد انها مقدمة لقصيدة عادية تعاتب وتمدح وتظهر محاسن سيف الدولة وشجاعته وتهيىء الحالة النفسية للشاعر والمناخ الصحيح لقصيدته ، هذه الملاحظة البسيطة الساذجة لم تخطر على اذهاننا ، وهي بديهية ، ولم نفهم القصيدة بالتدرج والوحدة ، ويستمر الشاعر في خطاب سيف الدولة متهما اياه بالجور والاستبداد ولكن في ضعف واستجداء :

يا اعدل الناس الا في معاملتي فيك الخصام وانت الخصم والحكم

وكم قيل هذا البيت في مناسبات شتى ، بعيدا عن الشاعر ، ولحن وغني واعرب وطبقت عليه القواعد البلاغية ولم يقل احد فيه انه بمثابة تحفز يهيىء للشاعر ان يصفع سيف الدولة ويتهمه بالغباء وبالرؤية الكاذبة :

اعيذها نظرات منك صادقة ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ولا يلبث ان يردف صفعته تلك باهانة بالغة :

وما انتفاع اخي الدنيا بناظره اذا استوت عنده الانوار والظلم

المقصود والمخاطب بهذا البيت سيف الدولة ، بعد ان تنكر للشاعر ، وهو المتهم بانه لا يستطيع التمييز بين الاشياء وان الانوار والظلم عنده سواء ، لقد اقتطع الناس هذا البيت ورددوه واعتبروه من الحكم : فاين الحكمة في هذ البيت اذا ما قرأناه في القصيدة ولم نقتطعه منها فينحسر عنه الاحساس الذي املى على المتنبي قوله ذاك؟ كم من المرات قرىء هذا البيت منفردا كحكمة ، انه تعبير ادبي غير مباشر فيه عمومية الاحكام الا ان الشاعر قصد به شخصا معينا بذاته ، فبأي حق نتلاعب بارادة الشاعر ونوجهها كما نشاء ، وهو كالبيت السابق ليس من الحكمة في شيء ، واننا اذا جردناه من القصيدة فقد كل رواء وحياة وحرارة ، لقد اعرب هذا البيت الاف المرات أيضا ، وذكر البلاغيون ان ما بين كلمتي الانوار والظلم طباق ايجاب .

أما ذلك الحوار الذي تذكره الكتب القديمة من ان ابا فراس كان حاضرا مجلس الامير واخذ يعترض على هذه القصيدة ويرد اكثر عيونها الى اصول جاهلية واسلامية ويتهم المتنبي بالسرقة ، والشاعر لا يأبه له ويستمر في القاء قصيدته فتكثر دعاويه فيها فيضربه سيف الدولة بالدواة ثم يسترضيه، فأمر موضوع ومختلق قام به احد خصوم المتنبي وقد اكد ذلك كثير من النقاد ومؤرخي الادب (٦) .

ولم نكتف بأن نقتطع الابيات من القصائد وننتزعها من احاسيس قائلها ومن جذورها الاولى في لحظة ابداعها بل جئنا الى هذه الابيات فجزأناها امثالا واستعارات تمثيلية : « انا الغريق فما خوفي من البلل ، ما لجرح بميت ايلام ، وربما صحت الاجسام بالعلل ، مصائب قوم عند قوم فوائد ، فان في الخمر معنى ليس في العنب.. الخ. » وهكذا بعيدا عن احاسيس الشاعر وظرفه وتجربته الشخصية ، ويقول المتنبي في قصيدته تلك :

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي واسمعت كلماتي من به صمم
انام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وهو بهذين البيتين يتقدم الى سيف الدولة ومن حضروا المجلس فيعرفهم بنفسه كأنهم لا يدرون من أمره شيئا بعد تلك السنين الطويلة ، ويبدو انه لا يريد ان يرفع هؤلاء الحاسدين من افراد الحاشية الى مستوى الاعمى والاصم ثم نراه يثور ثورة عارمة ويهدد تهديدا واضحا :

وجاهل مده في جهله ضحكي حتى أتته يد فراسة وفم
اذا نظرت نيوب الليث بارزة فلا تظننن ان الليث يبتسم

ويستمر في تهديده ويبالغ في شجاعته وقوته وان ليس بمقدور احد ان يتغلب عليه :

ومهجة مهجتي من هم صاحبها ادركتها بجواد ظهره حرم
رجلاه في الركض رجل واليدان يد وفعله ما تريد الكف والقدم
ومرهف سرت بين الجحفلين به حتى ضربت وموج الموت يلتطم
فالخيل والليل والبيداء تعرفني والضرب والطعن والقرطاس والقلم
صحبت في الفلوات الوحش منفردا حتى تعجب مني القور والاكم

ثم يعاتب بمرارة ويأسف ويتهم سيف الدولة ـ صديقه القديم ـ بأنه لا يحفظ ذمة ولا يرعى عهدا وانه عاجز عن ان يجد في الشاعر عيبا :

يا من يعز علينا ان نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم
ما كان اخلقنا منكم بتكرمة لو ان امركم من امرنا امم
ان كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح اذا ارضاكم الم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة ان المعارف في اهل النهى ذمم
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم

ثم يفخر بنفسه ويعتد بها وهو في حضرة الامير امعانا في اغاظته واهانة مجلسه :

ما ابعد العيب والنقصان عن شرفي انا الثريا وذان الشيب والهرم
ليت الغمام الذي عندي صوائقه يزيلهن الى من عنده الديم

ويهدد بأن الندم سيحيق بسيف الدولة ورهطه اذا ما فارقهم الشاعر :

ارى النوى تقتضيني كل مرحلة لا تستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركن ضميرا عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ندم
اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ان لا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد بلاد لا صديق لها وشر ما يكسب الانسان ما يصم

ثم يصل الى قمة غليانه النفسي فيقرر انه في كل هذه السنين الطويلة كان يمارس اعمالا لا تتلاءم وشاعريته وعبقريته وانه اهان نفسه واهدر طاقاتها في سوق مدائح الملوك الذين لا قدرة لهم على التمييز بين الصالح والطالح :

وشر ما قنصته راحتي قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم
بأي لفظ تقول الشعر زعنفة تجوز عندك لا عرب ولا عجم
هذا عتابك الا انه مقة قد ضمن الدر الا انه كلم

والان بعد ان عرضت هذه القصيدة هذا العرض السريع الذي لا يحتاج الى جهود كبيرة ، يحق لي ان اتساءل اين هذه القصيدة اليوم ؟ ان المدرسين قد قطعوها واشبعوها اعرابا وشرحوا غريبها وبينوا النكت البلاغية فيها ، وارباب الحكم قد جزأوها وعلقوها على حيطانهم ، « وما من كاتب او خطيب او متكلم او مناظر او مدرس الا وله من حكم المتنبي مدد ايما مدد » (٧) ، ولم

يلتفت أحد الى الشاعر العظيم حين ثار هذه الثورة العارمة تجاه هؤلاء الاغبياء من حاشية الامير الذين اضطر ان يسايرهم ويمدحهم ، ان محاولة جدية لاغتياله قد جرت بعد انتهائه من قراءة القصيدة بوقت قصير ، واننا اغتلنا قصيدته من بعده ـ عبر كل هذه الاجيال ـ واغفلنا فيها ان ندرس الشاعر الانسان الذي ابدعها كعمل فني متكامل يفصح عن ثورة نفسية شاملة ، ليس في هذه القصيدة اية حكمة بأي شكل من الاشكال ، وحتى المعري كان مخطئا حين قال : انا والمتنبي حكيمان انما الشاعر البحتري ، ان صح ان المعري قد قال ذلك . فالمتنبي لم يقصد ابدا في كثير من قصائده ان يرسل الحكمة في نصف بيت او في بيت كامل ليكون صالحا للاستعمال عند الحاجة ، لقد تمرد المتنبي على المفاهيم التي سادت عصره لفرديته واستقلاله الشخصي وطموحه فهو لم يصغ للناس ما كان يجري في خواطرهم كما يقرر الدكتور شوقي ضيف : « وعني الشاعر العباسي في مدحته بالحكم ، ... حتى كان المتنبي فبلغ بها الغاية التي ليس وراءها غاية ، وكأنه صاغ للناس كل ما يمكن ان يجري في خواطرهم ... ولا يكاد يوجد اديب عربي منذ عصره الا وهو يحفظ من حكمه ويستشهد بها في معارض كتاباته واحاديثه » (٨) . وهو لم يأخذ عن ارسطو كما قيل ولم يقتبس من الفلسفة اليونانية ما يوشح شعره بهالة حكمية ، والرسالة الحاتمية لم تخدم مجد المتنبي كما يرى الدكتور محمد مندور ولكنها شجعت على تجزئة تراثه الشعري وبعثرته : « ثم ان هذه الرسالة ـ مهما يكن مقصد مؤلفها ـ قد خدمت مجد المتنبي اذ لفتت النظر الى ما في شعره من اراء فلسفية ، وهذا ما رأته الاجيال المتعاقبة ميزة خاصة للمتنبي . ومن المعلوم ان العقلية السامية بوجه عام تميل الى الحكم المركزة » (٩).

ان اقتطاع جزء من قصيدة يميت فيه حيويته ويفصله عن جذوره كاقتطاع اي جزء من كائن حي ، وحتى القصائد التي تفتقد وحدة الموضوع يجب ان تقرأ ككل وان نفكر باحاسيس قائلها وتجربته وان نتمثلها ولا بد من علاقة تربط بين الموضوعات التي تتناولها القصيدة ، وهذه العلاقة هي الشاعر نفسه ، وعلينا ان لا نتناساه ، ولكل قصيدة اطار ينتظم ابياتها ، وعلى الشعراء ان لا يدعوا الفرصة للناهبين القانصين ان يجزئوا قصائدهم ويبعثروها هنا وهناك ، واذا ما اردنا ان ندرس هذه القصائد نحويا او بلاغيا فعلينا ان ندرسها ككل أيضا ، ان هذه التجزيئية لجريمة في فهم اثارنا الادبية وعملية تقصيب لاحاسيس الشاعر . ولقد ضاع جزء كبير من تراثنا الشعري لاننا لم نحسن دراسته ويجب ان نعيد النظر فيه وان نفهمه بوضوح وباسلوب صحيح بعيد عن النفعية ، « ومن اخص العيوب التي يؤخذ بها النقاد الذين نقدوا ابا تمام والبحتري والمتنبي انكم لا تجدون احدا من هؤلاء النقاد ينقد القصيدة من حيث هي قصيدة ، فهم اذا قرأوا اجمل قصائد ابي تمام والبحتري والمتنبي لا ينظرون اليها جملة ، كيف استقامت الفاظها ومعانيها واسلوبها، وانما يقفون عند البيت والبيتين ، أأجاد الشاعر في هذا التشبيه ام لم يجد ؟ اوفق في هذا التعبير ام لم يوفق ؟ وما هكذا نفهم نحن النقد الان ، وما هكذا نتصور المثل الاعلى للنقد الادبي » (١٠) .

ان هذه التجزيئية في قراءتنا للقصيدة هي التي جعلتني اعتقد ان قسما من ادبنا العربي ليس مقروءا قراءة صحيحة دقيقة بعد ، ولا اعني بهذا ان جهود الادباء الكبار قديما وحديثا ذهبت سدى ، فهم على ادراك تام لما ادعيه هنا ، ولكنني اعني ان قسما من القارئين اتسموا بالعجالة فيما يقرأون ويفهمون ويجزئون ، « وليس ذنب الادب العربي ان لا يقراه الناس ولا يعرفوه » (١١) . وكان من الذين نبهوا الى ان بعض الشعراء لم يحظوا بقراءة واعية ، الاستاذ عبد الله العلايلي ، حين قرر أن المعري لم يقرأ حتى يومنا هذا : « نحن لم نحسن قراءة المعري بعد فضلا عن احسان درسه ، وانا لا اقوله تواضعا او تعريضا بل حقيقة كل الحقيقة ، فالمعري ما دمنا نقراه في آثاره على ضوء حرفية المعجم العربي كما نقرأ أي أثر فني او ادبي اخر ، فلن يزال عسيرا علينا فهمه عسيرا علينا السير معه » (١٢) .

ان القراءة السريعة هي العلة التي جعلتنا بعيدين عن مصادر الابداع في ادبنا ، وان الانانية هي التي قادتنا الى التجزيئية ، ولا بد لنا في أي عمل فني جديد يهدف الى مستقبل رائع للشعر العربي من ان نعود الى جذور ادبنا القديم فنفهمها بصورة صحيحة وبوضوح تام والطريق طويلة تتطلب اناة وصبرا ومشقة .

بغداد

جلال الخياط

(١) ديزموند ستيورت وجون هايلوك ، بابل الجديدة (بالانجليزية)، لندن ١٩٥٦ ، ص ١٢٦ .

(٢) ابن رشيق القيرواني ، العمدة ، الجزء ١ ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٠٧ ، ص ١٧٥ .

(٣) محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٤٩ .

(٤) انظر : محمد عيد ، البلاغة العربية بين منهجي اللغة والادب، الادب ، العدد ٤ ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ١٨ وما بعدها .

(٥) الاغاني « كتاب التحرير » ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٧٣٨ .

(٦) انظر : محمد مهدي البصير ، في الادب العباسي ، بغداد ١٩٤٩ ، ص ٣٤٤ ، والنقد المنهجي عند العرب ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

(٧) احمد الاسكندري ومصطفى عناني ، الوسيط في الادب العربي وتاريخه ، الطبعة ١٦ ، بدون تاريخ ، ص ٢٧٤ .

(٨) شوقي ضيف ، المجلة ، العدد ٩٧ ، القاهرة ١٩٦٥، ص٢٦ .

(٩) النقد المنهجي عند العرب ، ص ٢٠٨ .

(١٠) طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ١٧٨ .

(١١) المصدر السابق ، ص ١٥ .

(١٢) عبد الله العلايلي ، المعري ذلك المجهول ، كتاب الاديب ، بيروت ١٩٤٤ ، ص ٣٦ .